خرائب الشام

قلعة بعلبك وما كُشف فيها حديثًا

ايهِ آثار بعلبكَّ سلامٌ بعد طول النوى وبعد المزارِ
ووثبت العفاء من عرَصاتٍ مقويات أو أُهَلٍ بالفخارِ
خرَبٌ حارت البرية فيها فتنة الناظرين والنظارِ
معجزات من البناء كبارٌ لاناسٍ ملء الزمان كبارِ
زادها الشيب حرمةً وجلالاً توَّجتها بهِ يد الاعصارِ
معبدٌ للاسرار قام ولكن صنعةٌ كان أعظمَ الاسرارِ
مثَّل القومُ كلَّ شيءٍ عجيب فيهِ تمثيلَ حكمةٍ واقتدارِ
صنعوا من جمادهِ ثمرًا يجـ ـنى ولكن بالعقل والابصارِ
وغروبًا من كل زهرٍ أنيقٍ لم تفتها نضارة الازهارِ
وشموسًا مضيئة وشعاعًا باهرات لكنها من حجارِ
وطيورًا ذواهبًا آياتٍ خالدات الندوّ والابكارِ
وأسودًا يخشى التحفُّز منها ويروع السكوتُ كالتزآرِ
عابسات الوجوه غير غضاب باديات الانياب غير ضوارِ
في عرانينها دخانٌ مثارٌ وبالحاظها سيولٌ شرارِ
تلك آياتهم وما برحت في كل آنٍ روائع الزوّارِ
ضمها كلها بديع نظام دق حتى كأنها في انتشارِ
في مقام للحسن يعبد بعد العـ ـقل فيهِ والعقل بعد الباري
أهل فينيقيا سلام عليكم يوم تفنى بقية الادهارِ
لكمُ الارض خالدين عليها بعظيم الاعمالِ والآثارِ
خضتم البحر يوم كان عصيًّا لم يسخِّر لقوة من بخارِ
غير صعب تخليد ذكر على الار ض لمن خلدوهُ فوق البحارِ
شيدوها لشمس دار صلاةٍ وأتمَّ الاغريق حلي الدارِ

هذا ما نظمهُ الشاعر العصري خليل افندي المطران من قصيدة عامرة الابيات وصف

فيها تلك الخرائب ابدع وصف وذهب فيها ما ذهب اليهِ غيرهُ من ان الفينيقيين بنوا قلعة بعلبك او الدكة الكبيرة ذات الحجارة الضخمة ثم شاد اليونان الهيكل الكبير فوقها والهيكل الصغير الى جانبهِ. وقد نُقض هذا المذهب الآن وثبت ان الروم هم الذين بنوا الدكة والهيكلين

ولقد رأينا في ما شادهُ الاوربيون في ايطاليا وفرنسا وما بقي من آثار المصريين في هذا القطر ابنية تقارب ابنية بعلبك فخامة وتزيد عليها جمالاً ولكن ليس فيها بناء يملأ العين دهشة والقلب سروراً ثم يحرّك عواطف النفس حتى تذرف الدموع الهوامل مثل اطلال بعلبك[1]. الفخامة في كبر الحجارة والاعمدة واتساع البناء وعظمة كل ما فيهِ والجمال في بداعة النقش وانتساق الاجزاء واحكامها بعضها مع بعض على ما فيها من الفخامة ولكن الذي يحرّك الشجا ويقبض النفس بعد انبساطها ويفيض الدموع من المآقي فعل الدهر وابنائهِ في تخريب تلك المباني

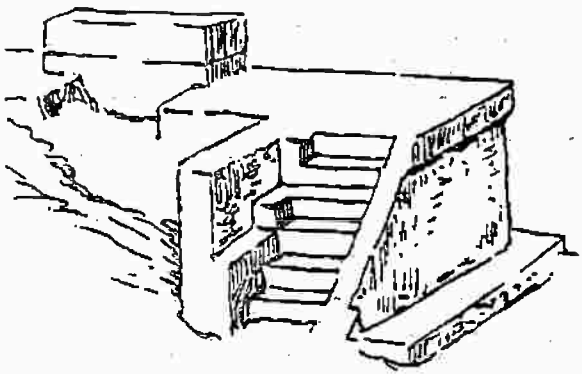

الشكل الاول

وتدميرها. أَوَ يصدّق احد ان الولاة كانوا يكسرون العمود الذي تفتخر دولة من دول الارض بنصب مثلهِ في ساحة عاصمتها لكي يستخرجوا منهُ قطعاً من الحديد تربط بين اجزائهِ. هكذا كان حال بعلبك حينما زرناها اولاً منذ خمس وعشرين سنة وقد كتبنا في وصفها حينئذٍ كتابةً لا بأس باعادة بعضها الآن وشفعهُ بما عُلِم بعد ذلك ووصف ما اكتشفهُ الالمانيون حديثاً اتماماً للفائدة فنقول

بَعْلَبَكّ ويسميها اليونان هليوبوليس اي مدينة الشمس خرائب في الطرف الشمالي من

(١) قال العلامة رو بصن انها تفوق في اتساعها ودقة صنعها كل بناء في اوربا وافريقية وغربي اسيا فهي مثل مباني اسيا في دقة الصنعة ولكنها تفوقها في الفخامة والاتساع ومثل مباني مصر في الفخامة والاتساع ولكنها تفوقها في دقة الصناعة وجمالها

سهل البقاع عند سفح لبنان الشرقي حيث الارتفاع عن سطح البحر نحو ٤٥٠٠ قدم. قال بعضهم ان معنى اسمها مدينة بعل حاسبين بكّ مثل باكي المصرية ومعناها مدينة ولعلّ ذلك سبب تسميتها هليوبوليس اي مدينة الشمس لان المعبود بعل يراد به الشمس. ويرجح البعض ان معناها بعل البقاع فان معنى بقاع بالعبرانية والفينيقية مثل معنى بقاع العربيّة اي السهل بين جبلين

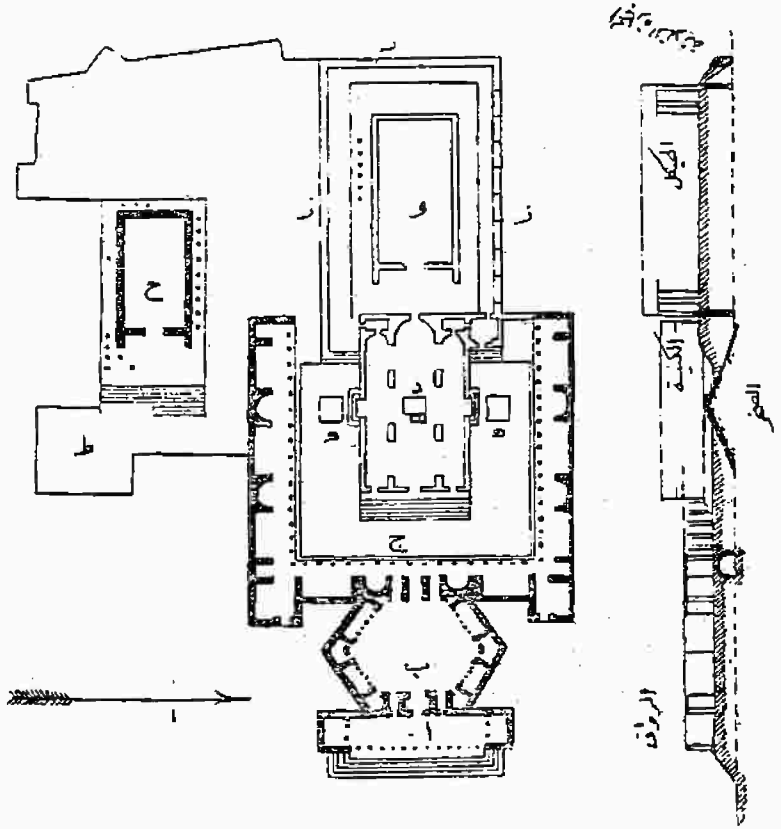

الشكل الثاني

والظاهر ان سكان سورية الاقدمين رأوا صخرًا مرتفعًا في طرف سهل البقاع يطلّ على ما حولهُ من البلاد الخصبة وتجري بقربهِ مياه غزيرة فنحتوا فيهِ مذبحًا للشمس التي كانوا يعبدونها. وقد بقي هذا المذبح الى يومنا هذا وصورتهُ مرسومة في الشكل الاول يصعد اليهِ بدرج منحوت في الصخر. هناك كان يجتمع قدماء السوريين ويذبحون الذبائح للشمس ويشكرونها على الخيرات

الكثيرة التي افتتحها ارضهم بفضل نورها وحرها. وكأنهم علموا ما يحتملهُ حكام هذا العصر وهو ان كل قوة في الارض وما عليها للحركة والنماء آتية من نور الشمس وحرارتها لكنهم اخطأوا في شكرهم للشمس نفسها لا لمبدعها

والظاهر ان هذا المعبد والبقعة التي هو فيها راقا للروم الذين فتحوا بلاد الشام وامتلكوها فاقاموا حولهُ دكة كبيرة حتى يتسع لهم المجال لبناء هيكل كبير ثم بنوا هيكلين فاقموا الصغير منهما وقبلما اتموا الكبير انتشرت الديانة المسيحية واعتنقها قياصرة الروم ومنعوا عبادة الاصنام وبنوا كنيسة في دار الهيكل الكبير وحوّلوا الصغير كنيسة اخرى وجاء العرب بعدهم فجعلوا المكان قلعة وبنوا من انقاضهِ حصناً كما سيجيء

الشكل الثالث

لِتلتفت القارئ الى الشكل الثاني فيرى على يمينهِ شكلاً مقطوعاً في وسطهِ رسم الصخر الذي نحت منهُ المذبح الاول وحول هذا الصخر اقيمت الدكة التي بني الهيكل عليها اخيراً — اقيمت حتى توازي اعلى المذبح وجُعل في اطرافها اقبية كبيرة وثيقة البناء اقيمت جدران الهيكل واعمدتهُ على جدرانها ثم بني حولها سور من الحجارة الضخمة لكي يسندها ويمنع نقوّض اركانها . وفي الجانب الغربي من هذا السور الحجارة الثلاثة المشهورة طول اكبرها ٦٣ قدماً وطول ثانيهِ ٦٢ قدماً و١/٢ قدم وطول الثالث ٦٢ قدماً وعلو كلٍّ منها ١٣ قدماً وقد قطعت على الراجح من محجر يبعد عنها نحو ربع ساعة حيث لا يزال حجر طولهُ ٧١ قدماً وعلوهُ ١٤ قدماً وعرضهُ ١٣ قدماً يسمّى حجر الحبلى وهو المرسوم في الشكل الثالث والى جانبهِ وفوقهُ رجال وجملان وثلاثة حمير ليظهر كبر حجمهِ بالنسبة اليها

وفي الجانب الشمالي من هذا السور تسعة حجارة كبيرة طول كل منها ٣ قدماً وكان

الجانب الجنوبي مطمورًا فكشف وفيهِ حجارة كبيرة مثل هذه . وارتفاع الدكة خمسون قدمًا وعليها بنى الرومان هيكلهم الكبير ثم بنى المسيحيون كنيستهم في دارهِ وانضح ذلك جليًّا من النظر الى الشكل الثاني وتتبع ما يلي من الشرح

مَن يدخل الهيكل من الجهة الشرقية حيث الحرف ا يجد هناك رواقًا كبيرًا طولهُ ١٨٠ قدمًا وعرضهُ ٢٧ قدمًا في كل طرف من طرفيهِ برج وكان امام هذا الرواق من الجهة الشرقية درج يصعد بهِ اليهِ لانهُ مرتفع عن سطح الارض التي امامهُ عشرين قدمًا ولم يبقَ شيء من هذا الدرج الآن وكان فوق الدرج اثنا عشر عمودًا لم يبقَ منها الاَّ قواعدها وعلى قاعدتين منها كتابة لا تينيَّة قرأها السائحان وود ودوكنس منذ مئة وخمسين سنة مفادها ان الهيكل الكبير بناهُ انطونيوس بيوس وجوليا دومنا (في اواسط القرن الثاني) . والبرجان اللذان على طرفي هذا الرواق مبنيان بحجارة كبيرة طول بعضها ٢٤ قدمًا وهي مزخرفة بالنقوش من الداخل والخارج وامام كلٍّ منهما باب يوصل منهُ الى الاقبية التي في الدكة

وغربي الرواق البهو المسدَّس المدلول عليهِ بالحرف ب يوصل اليهِ بباب اتساعهُ ١٧ قدمًا وعلى جانبيهِ بابان آخران اتساع كل منهما عشر اقدام وعرض المسدَّس من الشرق الى الغرب نحو ١٩٠ قدمًا وطولهُ من الزاوية الشمالية الى الزاوية الجنوبيَّة نحو ٢٥٠ قدمًا وعلى دائرهِ اربع مقاصير قائمة الزوايا امام كلٍّ منها اربعة اعمدة ومقاصير اخرى بينها . ونقوش هذا المسدَّس وزخارفهُ تدهش الابصار وهي خربة متصدعة فكيف بها وقتما كانت عامرة سالمة

ويوصل من المسدَّس الى دار الهيكل وهي المربع الكبير المدلول عليهِ بالحرف ج . وبين المسدَّس والدار باب كبير عرضهُ خمسون قدمًا على جانبيهِ بابان صغيران عرض كلٍّ منهما عشر اقدام وطول الدار من الشرق الى الغرب ٤٤٠ قدمًا وعرضها من الشمال الى الجنوب ٣٧٠ قدمًا وحولها مقاصير ومحاريب للعبادة ونصب التماثيل وكان على دائرها اعمدة تحيط بها كما ترى في الرسم وفي المقاصير محاريب كثيرة في طبقتين الواحدة فوق الاخرى لنصب التماثيل وبين المحراب والمحراب عمود او اكثر من الشكل الكورنتي البديع الصنعة واشكال المحاريب مختلفة فبعضها مقوَّس وبعضها صدفي وبعضها مقطوع من اعلاهُ والظاهر ان الاعمدة التي كانت امام هذه المقاصير والمحاريب كانت من المرمر السماقي المصري لان بعضها لا يزال مطروحًا هناك وقطر الواحد منها نحو ثلاث اقدام

لما زرنا بعلبك منذ خمس وعشرين سنة كانت هذه الدار مملوءة بالانقاض لا يعرف ما كان قائمًا فيها وقد قلنا حينئذٍ ان في وسطها قطعة مربعة من الارض ارفع من ارضها يسيرًا

عليها اثر البناء والظاهر انها كانت هيكلاً او نحوهُ ". وهناك كان اكثر نقب الباحثين من الالمان بامر امبراطور المانيا فوجدوا آثار كنيسة قديمة طولها من الشرق الى الغرب نحو ٢٣٠ قدماً وعرضها من الشمال الى الجنوب ١٢٠ قدماً كما ترى في الشكل الثاني وكان في وسطها حيث الحرف د مذبح كبير طولهُ نحو ٢٨ قدماً والى جانبهِ الشرقي المذبح القديم المنحوت في الصخر والى يمينهِ ويساره حيث الحرفان د ه حوضان كبيران لغسل الذبائح او للتطهير جوانبهما كثيرة النقوش والزخرفة فيها الاكاليل وقلائد الازهار ورؤس البشر والثيران والالهة والحيتان والظاهر انهما اقدم من الكنيسة . . والكنيسة تشبه في شكلها وبنائها كنيسة الامبراطور قسطنطين في القدس الشريف والظاهر انها بنيت معها في زمن واحد وان العرب هدموها ان لم تكن قد هُدمت بزلزلة وبنوا مكانها حمَّاماً

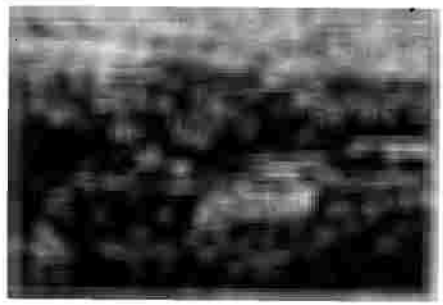

الشكل الرابع

وغربي الكنيسة الهيكل الكبير حيث هيكل الشمس او هيكل جميع الآلهة وهو قائم على الدكة الصناعية المشار اليها آنفاً وفي جدران سورها الحجارة الكبيرة حيث الحرف ر وحجارة اصغر منها حيث الحرفان ز ز وقد كان هذا الهيكل من اكبر هياكل المسكونة واجملها ولكن لم يبقَ منهُ الآن الاَّ ستة اعمدة قائمة تناطح السحاب صبرت على نائبات النوازل وعصت على غائلات الزلازل وهي النقط السوداء في الرسم الى الجهة الجنوبية من الهيكل وهي اول ما يظهر من بعلبك عن بعد كما ترى في الشكل الرابع . . وكان طول هذا الهيكل ٢٩٠ قدماً وعرضهُ ١٦٠ قدماً يحيط بهِ اربعة وخمسون عموداً لم يبقَ منها قائماً غير هذه الستة علو كلٍّ منها ٦٢ قدماً وفوقهُ افريز ارتفاعهُ ١٤ قدماً ونقوش هذا الافريز وتيجان الاعمدة مما يعجز عن وصفهِ قلم البليغ واعجب من ذلك تحكيم وضعها على ضخامة جرمها وعظيم ثقلها والارتفاع الشاهق الذي رفعت اليهِ

والعمود ثلث قطع متصلة بعضها ببعض اتصالاً متيناً بقطعة او قطعتين من الحديد وهو الذي جنى عليها فكُسرت بكي يؤخذ

هذا من حيث الهيكل الكبير اما الهيكل الصغير فهو المدلول عليهِ بالحرف ح في الشكل الثاني الى الجنوب من الهيكل الكبير ولم يزل قائماً وهو من الطراز الكورنثي مثل الهيكل الكبير طولهُ مع رواق الاعمدة الذي حولهُ ٢٢٥ قدماً وعرضهُ ١٢٠ قدماً وطول البناء من غير الاعمدة ١٦٠ قدماً وعرضهُ ٨٥ قدماً وكان يرقى اليهِ من جهتهِ الشرقية بسلَّم فيها ٣٠ درجة بقيت الى عهد السائح دلاروك الذي زارهُ سنة ١٦٨٨ . والاعمدة التي حولهُ ١٥ من الشمال و١٥ من الجنوب وثمانية من الغرب وكان في الشرق صفان من الاعمدة الداخلي منهما مضلَّع وقطر كل عمود من اعمدتهِ ست اقدام وعقدتان وطولهُ ٤٦ قدماً وقد سقط اكثرها ولم يبقَ منها الآن قائماً الاَّ ما تدلُّ عليهِ النقط في الرسم والعمود الجنوبي منها سقط منذ امد بعيد واستند الى الجدار ولا يزال كذلك حتى الآن ولا تزال الاعمدة الشمالية قائمة وكذلك السقف الذي بينها وبين جدار الهيكل بما فيهِ من نقوش الازهار واوراق الاشجار والتماثيل الجميلة الصورة . وباب هذا الهيكل من عجائب المباني بنقوشهِ وعتبتهُ ثلاثة حجارة كبيرة انتضَّ الاوسط منها حتى كاد يسقط فدعم بناء قبيح المنظر ازالهُ الباحثون الالمانيون الآن وردُّوا الحجر الى وضعهِ الاول

وعند الحرف ط البناء العربي وهو حسَن في غير هذا المكان لكنهُ قبيح هنا بالنسبة الى ما حولهُ والظاهر ان الباحثين سيزيلونهُ ويزيلون كل بناء جدَّ هناك بعد بناء الرومان

وقد بنيت بعلبك في اوائل التاريخ المسيحي وكانت في القرن الرابع من اعظم معاهد الديانة الوثنيَّة هيكلها الكبير لعبادة الشمس اوجميع الالهة وهيكلها الصغير لعبادة المشتري وضربت فيها النقود وعليها صورة الهيكلين . وكان لعبادة الشمس الشان العظيم في سورية ولكهنتها المقام الرفيع حتى ان الامبراطور سبتيموس سفروس تزوج جوليادومنا ابنة كاهن الشمس في حمص ومعلوم ان هليوجبلوس الحمصي كاهن الشمس صار امبراطوراً لرومية وقرن السوريون عبادة الزهرة بعبادة الشمس وكانوا يأتون بعلبك لهذه الغاية لان فيها هيكلاً صغيراً للزهرة وهو من اجمل المباني القديمة وسنعود الى وصفهِ في وقت آخر ولذلك كان اهالي بعلبك في اشد الحمس الديني حتى انهم قتلوا جلاسينوس المثل سنة ٢٩٧ للميلاد لانهُ تنصَّر وابى ان يمثل في المشهد

ثم لما قوي شأن النصرانية في عهد الملك قسطنطين خرب هيكل الزهرة في افقا بجبل لبنان وأمرَ ان يقلع اهالي بعلبك عن فظائع الديانة الوثنية لان النساء والبنات كن يعرضنَ للبغاء في عبادة الزهرة وان يُرغَبوا في اعتناق الديانة المسيحية وبني كنيستهُ المشار اليها آنفاً في دار الهيكل

الكبير او حوّل الهيكل كنيسة وسام لها اسقفًا وشماسة ولكن بقيت عبادة الاصنام في المدينة لانها كانت ارسخ من ان تزول سريعًا

ثم لما قام الامبراطور يوليان المرتد سنة ٣٦١ اعاد الديانة الوثنية الى عزها الاول وفتك اهلها بالمسيحيين فتكًا ذريعًا في بعلبك وقتلوا الراهب كيرلُّس الذي كسر اصنامهم وقطعوهُ اربًا واكلوا كبدهُ ونفي المسيحيون من الاسكندرية الى بعلبك حيث لا يجدون مسيحيين غيرهم يهتمون بامرهم

وقام الامبراطور ثيودوسيوس الكبير سنة ٣٧٩ فلم يكتفِ بما فعلهُ قسطنطين من اقفال هياكل الاصنام بل خرّبها تخريبًا وحوّل هيكل الشمس في بعلبك الى كنيسة والظاهر ان دعائم الوثنية نقوّضت من بعلبك من ذلك الحين

ولما فتح ابو عبيدة بن الجراح دمشق وقصد مدينة حمص مرَّ على بعلبك ولما قرب منها التقى بقافلة عظيمة فيها جمع من الناس معهم البغال والدواب وعليها من انواع التجارات اكثرها من السكّر والفستق والتين فغنمها . وحاصر بعلبك فصالحهُ اهلها على الفي اوقية من الذهب والفي اوقية من الفضّة والفي ثوب من الديباج وخمسة آلاف سيف وعلى ان يدفعوا خراج الارض تلك السنة ويؤدوا الجزية كل عام لكنهم شرطوا على ابي عبيدة ان لا يدخل عاملهُ المدينة وتم الصلح على ذلك واستعمل ابو عبيدة على المدينة رافع بن عبدالله السهمي وضمَّ اليهِ ثمانمائة فارس فاقام خارج المدينة وجعل يغزو البلاد المجاورة و يعود بالغنائم ويبيعها من اهل المدينة فانسوا اليهِ وادخلوهُ مدينتهم فحصَّن هيكلها ومن ثم صار قلعة للمسلمين

وفتح القرامطة بعلبك سنة ٣٩٩ للهجرة وقتلوا اهلها ولم يبقوا منهم الاَّ القليل . ثم تناوبتها الحروب والزلازل والسيول وايدي التدمير والتخريب كما تناوبت غيرها من مدائن الشام فلم تبقِ منها الاَّ آثار عظمتها السالفة

وزارها بلون السائح الفرنسوي سنة ١٥٤٨ فرأى هيكلها الكبير لا يزال قلعة وكانت اعمدتهُ القائمة تسعة ثم وقع منها ثلاثة بالزلزلة التي حدثت سنة ١٧٥٩ وكانت اعمدة الهيكل الصغير القائمة ٢٩ فوقع منها تسعة وتخلخل الحجر الاوسط من عتب بابهِ . والدهر يفجع بعد العين بالأثر

وقد نقلنا الشكل الاوّل والثاني من اشكال هذه المقالة عن نبذة كتبها الدكتور الفرد بلس في نشرة جمعية النقب في فلسطين